رأي في مهرجان المربد الرابع

ماجد السامرائي

هناك الكثير مما يمكن ان يقال عن « مهرجان المربد الشعري الرابع » ؛ الذي استأنف حياته من جديد ، بعد توقف دام حوالي اربع سنوات .. كاد متابعوه خلالها ان ينسوا صورته ، كما نسي المهرجان نفسه بعض خصائصه وتقاليده ..

كانت هناك قصائد قليلة أعطت بصيص ضوء في أمسيات المهرجان .. ولكنها لم تتوهج . وبعض شعراء القصائد الجيدة ، بعد أن سمعوا تهامس الجمهور وعدم اصغائه (بسبب رداءة الشعر) صعدوا الى منصة الالقاء وهم في حالة من الاحباط النفسي ، الامر الذي لم يتح لقصائدهم القاء جيدا .. فانسربت هي الاخرى ، ضمن هذا الجو .. فعاشوا الخيبة مع جمهورهم .

هل هي « بلاغة شعرية جديدة » نطق بها شعراء اليوم ، ولم يألفها الجمهور ؟

أم ان الشعر ضرب على وتيرة غير التي يضرب عليها الجمهور ، فلم يلامس شيئا من اهتماماته أو همومه ؟

في عملية تقييم كهذه ينبغي ان لا ننساق كلية وراء « ذوق الجمهور » .. فهو ذوق يحمل ، من حيث جوهر تكوينه وتركيبه ، الكثير من التناقض ، كما يركن الى معايير لا تكون دائما هي المعايير التي يلتزمها « نقد موضوعي » ينظر الى القصيدة من زاوية تجربتها وبنائها وتعبيرها عن « اللحظة الحضارية » الراهنة في حياة العرب ، بكل ما يدخل هذه اللحظة من عوامل ومكوّنات نفسية وتاريخية وواقعية يومية ..

ولكن .. ورغم ان « النقد » الذي كان تقليدا من تقاليد المهرجان في دوراته السابقة ، في متابعة أمسيات الشعر .. رغم ان هذا التقليد قد غاب ، في هذه المرة ، غيابا محزنا ولا مبرر له (رغم وجود عدد لا بأس به من النقاد الجادين والجيدين ممن حضروا المهرجان) ؛ أقول : رغم هذا فان المتابع يمكن أن يلمس تلاشي وجود تلك الهوّة التي نقول دائما انها تفصل بين « التقييم النقدي » ، في اطاره العلمي الموضوعي وبين « ذوق الجمهور » ..

فهل ارتفع الجمهور ، كل الجمهور ، الى مثل هذا المستوى النقدي الرفيع بحيث ردم تلك الهوة ؟

لا نريد أن نقطع بهذا فنقول : نعم .. رغم ايماننا بما للجمهور من حاسة سليمة للتلقي .. الا ان الواضح في هذا هو رداءة كثير مما ألقي من شعر .. اذ غرق في سطحية وفجاجة في البعض منه ، وفي البعض الآخر انحدر نحو هموم صغيرة لم تلامس لا الابداع ولا ما نعيش اليوم من تجارب ملامسة حقيقية .. بحيث جعلت الحكم عليه يكون سهلا . حتى ان أحد الشبان البصريين ، بعد أن انتهت الامسية التي تمت في مدينة البصرة ، واجه شاعرا من شعراء المهرجان ، وهو يستنكر الحالة التي رآها حيث أصيب بخيبة مما سمع .. مؤكدا له انه اذا كان هذا هو مستوى الشعر الذي يعدّ مقبولا لمهرجانات كهذه، فان لديهم ما هو بمستواه !

لا أريد بهذا أن أنتقص من أقدار الشعراء .. انما هذه هي الحقيقة ، نقولها بكل ثقة ، وعلينا أن نعيها جميعا ، شعراء ونقادا ، لكي لا نعلن « موت الشعر »، وننقذه من حالة التردي التي هو فيها اليوم ..

* * *

ترى ، من أين جاءت ، وكيف تكوّنت كل هذه المسافة بين الشاعر وجمهوره ؟ بين الشاعر والشعر ؟ بين ما سمعناه وبين حقيقة الابداع ، أو الابداع الحقيقي؟

كان الواحد منا يصغي ، ويصغي .. حتى تأخذه « غفوة ذهنية » لا توقظه فيها سوى رعدة كلمة ازبدت في فم شاعر ، ويتنبه ، فيصغي ، ثم لا يجد سوى نفخ هواء . وكأن القوم في موكب جنائزي ألفه الناس .. لا شيء فيه جديد ، ولا شيء يثير الانتباه .. وبعض الذي أثارهم أو استلفت منهم انتباها كانوا قتلوه قراءة، أو سماعا في مناسبات غير هذه .

وهكذا كانت المسافة موجودة .. وقائمة :

ـ مسافة ما بين « هموم الشاعر » و « طبيعة المتلقي » . فكثيرا ما جاءت القصيدة غارقة في غثيان ذهني ، مركزة على ما هو ثانوي من هموم الانسان في عصره .. في حين كان الجمهور في « ضفة اخرى » ، ممتلئا بهموم اخرى ، وان اختلطت عناصرها ، وان جمعت التناقض في بعض من حدودها .. الا انها كانت « هموما واضحة » ، وقليلة هي القصائد التي لامستها، أو تناغمت مع ايقاعها ..

ـ ومسافة ما بين الشاعر والشعر . ان القصائد التي الفت هذه المسافة قليلة ، فكانت انسلاخا حارا من صميم وجيع .. اتحدت فيها « رؤيا الشاعر » بضمير الامة .. فكان للتجربة عمقها الشعوري والانساني ، وكان لها مداها . على العكس من هذا كله.. لقد سمعنا الكثير من القصائد التي كانت نقيضا لهذه الحالة ، لم يستطع شعراؤها تحريرها من شكلية القوالب الجامدة ، والقاموس الشائع .

ـ ومسافة أخرى ما بين « التجربة الشعرية » و « تجربة العصر » . فلعل قضايا العصر ، عصرنا الراهن ، من الجسامة والضخامة والعمق للحدّ الذي باءت معه بالفشل محاولة الشاعر أن ينفذ بحدسه وتجربته الى أعماقها .. فلم تمتلك قصيدته امكانات التعبير عن تلك المعاناة .. ولم يتوهج الشعر ولا صفا . فهو حين أراد ان يؤكد على « المكان » انتفى عنده « الزمان » .. وكان العكس صحيحا ايضا ..

من كل هذا .. نرى ونلمس فضيلة « المربد الرابع » في انه طرح أمامنا أزمة شعرنا الراهن ، وأزمة الشاعر .. ولعلّ هذا من أهم الموضوعات الحرية بالدراسة ..

لقد وجدنا « الحيوية المبدعة » تنخفض .. وانخفاضها هذا مصدره عدم وعي الشاعر طبيعة عمله، وعدم تدقيقه طريق المستقبل الذي يمكن للشعر أن يعيش فيه ..

وينسى كثير من الشعراء اليوم ، في زحمة هذا الدوار العربي اللعين ، ان الشعر انفعال صميم بين ما هو « ذاتي » وما هو « عام » ، أو قومي بمعنى من المعاني .. وان حيوية الشعر المبدعة انما تتحقق من خلال هذا الانفعال الصادق ..

ـ وان الشعراء ، او بعضهم ، كتبوا قصائدهم خارج حدود « منطقة الابداع الشعري » .. فجاءت بتكوينات عروضية ، وعبارات مصاغة صياغة بيانية .. لكنها ظلت خارج حدود الابداع .. بعيدة عن طبيعة الشعر وجوهره ، منتمية اليه من حيث اطارها الشكلي.

ـ اضف الى هذا وذاك ان كثيرين ممن استمعنا اليهم عبر أمسيات المربد الرابع هذا لا يمتلكون نظرة أصيلة الى الوجود .. نظرة متعمقة ، واثقة .. بنفس الوقت الذي افتقرت فيه « أداتهم التعبيرية » الى الخصائص المميزة التي يمكن ان تطبع شخصياتهم ، سواء من حيث اللغة والاداء والتعبير ، أو من حيث الرؤيا الشعرية .. فأضاعوا ، بذلك ، أكثر صفات الشاعر بديهية وقربا الى الذهن . وكان غير عسير على ناقد ما أن يجد معادن مختلفة في القصيدة الواحدة لم تعمل فيها الذات عملها ، بصهرها واعادة تكوينها، بحيث تصبح في وضع تحقق فيه وحدتها العضوية ، وتناميها الداخلي ، وتطورها ، أساسا وجوهرا . لقد افتقدت الكثير من القصائد تجربتها الكيانية ، فضاعت شعريا.. وضيعتنا جمهورا مستقبلا .

* * *

هل نعود بالذاكرة الى ما كان ؟

دعونا نتذكر « المربد الاول » .. حيث التجربة في مولدها الاول ..

في ذلك اللقاء كان للشعر موقعه ، وكان للجمهور استجابته .. وكنت تجد ان بين تجربة الشاعر وتجربة الجمهور نوعا من اللقاء ، ان صادف وتنافر ، فهو لا يبتعد الى حدود الانفصال التام . وكانت هناك قضايا عديدة تتحد ، مرة واحدة ، في عملية الخلق الشعري عند الشاعر . كان هناك اقتراب من عالم النفس والوجود . وبكلمات موجزة نستطيع القول ان مادة الابداع هي التي كانت سائدة وغالبة على معظم ما القي من شعر في ذلك اللقاء .

كنت تحسّ ، على اختلاف مستويات الشعراء ومستويات تجاربهم ، ان الشاعر كان يعمل ، وبشكل متواصل ، على أن تكون قصيدته « شيئا » يضيف قيمة الى القيم الفنية السائدة .. وكان غير واحد من الشعراء قد قدم لنا اكتشافاته لصياغات شعرية نابعة من اكتشاف خفي لاسرار الذات والوجود ، مما أكد ، أمام الجميع ، قدرة البعض على الخلق والتطوير والاضافة.. (على سبيل المثال : ما قدمه الشاعران حسب الشيخ جعفر وسعدي يوسف) .

وفي ذلك اللقاء تحقق للنقد لقاؤه بالابداع على نحو عميق الدلالة .. اذ صدر النقد عن لقاء يقيني بالشعر ، واستخدم النقاد النظرية النقدية الجديدة في مجالها التطبيقي ، محللين ودارسين ، ومستقصين الكثير من الانجازات ، والاخفاقات ايضا ، التي حققتها، او وصلت اليها الحركة الشعرية العربية في اطارها الراهن . فكما تحقق ، على صعيد الشعر ، ذلك الصراع العميق بين القصيدة في بنائها الكلاسيكي والقصيدة في بنائها الجديد ، كذلك كان النقد في اطار ذلك المهرجان : اسهاما اساسيا وفعالا في هذا الصراع .

واذا كان قد ظهر بعض النقاد التوفيقيين في اطـــار جلسات النقد ، فانه ظهر أيضا نقاد ثائرون ، أكـــدوا نظريتهم ونظرتهم ، كما أكدوا أهم معالم ثورتهم النقدية (مثل الدكتور محمد النويهي) .

وعن ذلك اللقاء أيضا كان ذلك « البيان الختامي » الذي عبر عن الواقع الراهن للحركة الشعرية العربية . كما عبر عن التطلع المستقبلي ، عبر رؤية نافذة الـــى جوهر الفكر الشعري العربي . كان هناك تقييم لمسار الحركة الشعرية العربية من وجهـــة نظر ابداعية .. وجهة نظر مستوعبة لتاريخ المرحلة ، مدركة لخطـورة العمل التجديدي .. وفي ضوء ذلك كان الحديث عـن الشعر كابداع ، وعن الموقف الحضاري لهذا الابـداع ، في اطار رؤية حضارية ، ابداعية ، قومية ، انسانيـــة شاملة ، عبر استيعاب للتجربة المعاصرة ..

من خلال ذلك « البيان » تعرفنا على نظرة «المربد» (بشعرائه ونقاده .. وربما جمهوره أيضا) الى الشاعر الاصيل ومهمته في عصر من اكثر العصور اختلاطـــا وارهاقا للنفس .. وفي أمة محاصرة بكل عوامل الموت .. لكنها تنهض من أعماق حضارتها ، وبقـــــدرة فائقة ، لتمارس استمرارها الحضاري والابداعي .

ان شيئا كثيرا من هذا الـــــذي كان تحقق في « المربد الاول » ، وحتى في « المربد الثاني » لم يتحقق ، للاسف ، في « المربد الرابع » .. وكأن جميع الاشياء تعود القهقرى .. وتتراجع بنوع من البؤس . حتى «البيان الختامي » لهذا المهرجان ، الذي كتب في هذه المرحلة التي فيها الكثير مما يمكن ان يقال ، ان على صعيـــد الابداع الشعري العربي أو على صعيد الواقع .. حتـى البيان كان قد اختصر نفسه بمجموعة قليلة من الاسطر ، لم تعبر لا عن حقيقة الوضع الشعري ، ولا عن « منظور المربديين » ــ شعراء ونقادا ــ للشعر وتقييمهم لتجربته المعاصرة .. انما كان أشبه بـ « بيان صحفي » مختصر عن عمل ما .. لا علاقة له من قريب أو بعيد بالابداع . وكأنه كتب في ساعة من التعب والاجهاد البالغين .

ان الحرص على استمرار التجربة ينبغي أن يكون رائد الجميع . واذا كنا ، هنا ، نتحـــدث عن ضعف الشعر في « المربد الرابع » .. فان ما ينبغي أن يتم ، في نطاق المهرجانات القادمة ، هو عمل اكثر جديـــة ، واشد ارتباطا بمفهوم مهرجان يعقد في مرحلة نحن فيها على مشارف ثمانينات القرن العشرين .. تحقق فيهـــا من التطور ، ومن تغير المفاهيم ما يجب علينا أن نلحق به ، ونتابعه .. لنكون جديرين بعصرنا .. والا .. فـــان الفائدة معدومة من الاستمرار ..

ماجد صالح السامرائي
بغداد

صدر حديثا

روايات وقصص
د. سهيل ادريس
في طبعـة جديدة :

الحي اللاتيني
(الطبعـة السابعـة)

الخندق الغميق
(الطبعة الثالثـة)

اصابعنا التي تحترق
(الطبعة الثالثـة)

قصص سهيل ادريس
فـي جزئيـن :
اقاصيص اولى
اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب